ولم تنته حدة الصراع، فقد كانت الفترة الانتقالية كي يصدر الباب العالي اوامره الى الوزير قرة مصطفى باشا والي بغداد لقيادة حملة عسكرية على البصرة باشتراك ولاة اقاليم العراق: والي ديار بكر ووالي الموصل ووالي الرقة ووالي شهرزور... وكانت حملة كبيرة اشتركت فيها المدافع الضخمة وتحركت في ٢٤ تشرين الثاني / نوفمبر ١٦٦٧م، وبدأت تهاجم جميع المناطق الموالية، وتكتسح اقليم البصرة تدريجياً.

هكذا تشتت اتباع حسين باشا الذي هرب الى الحويزة نهائياً ولم تر عينه البصرة بعد ذلك، فازيلت امارة افراسياب، وعادت المركزية الادارية لولاية البصرة التي رابطت فيها حامية عثمانية قوية لم تكن تقوى على كبح جماح الاضطرابات بعد زوال امارة افراسياب بسيطرة الشيوخ العرب على الطرق التجارية ... وكانت الاوضاع في نهاية القرن السابع عشر قد أهلت مانع بن مغامس سنة ١٦٩٤م رئيس عشيرة المنتفك للزحف على رأس قواته. وفرض هيمنته على البصرة بعد طرد واليها العثماني كي تبدأ صفحة تاريخية جديدة في حياة العراق وفي ظل العلاقات المتوترة بين العثمانيين والصفويين*.

٤- منطقة الخليج العربي: تبلور القوى القبلية العربية:-

١ / التنافس الاجنبي:

كانت الاوضاع في منطقة الخليج العربي عند مطلع القرن السادس عشر تترجح بين قوتين عربيتين مؤثرتين، أولاهما: بنو جبر، وثانيتهما: مملكة هرمز.

---

* عن تاريخ البصرة الافراسيابية، احيل القارئ الى اطروحة د. طارق الحمداني.
T.N. Hamid Al -Hamdani, The Political, Adminstrative and Economic History of Basra Province 1534-1638. (Unpublished Ph. D. Thesis) The Univ. of manchester, 1980.

اضافة الى دراسته الموسومة «العلاقات بين افراسياب والدولة العثمانية ابان حكم أفاراسياب باشا وعلي باشا ١٥٩٦- ١٦٥٠»، والخليج العربي، المجلد (١٦)، العدد (١)، جامعة البصرة، ١٩٨٤

ان ابرز مصدرين تاريخيين قديمين هما: تافرينيه، العراق في القرن السابع عشر ترجمة: بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد، ١٩٢٤. ورحلات بيترو ديللا في شرق الهند والجزيرة العربية (المطبوعة بالانكليزية سنة ١٦٦٥ في لندن).

انظر ايضاً. د. بديع محمد جمعة، الشاه عباس الكبير ٩٩٦-١٠٣٨هـ/ ١٥٨٨-١٦٢٩م، بيروت، ١٩٨٠.

لقد بلغ نفوذ الجبور لقب «سلطان البحرين والقطيف والاحساء ورئيس أهل نجد»، وامتدت سيادته نحو السواحل العثمانية، وكان الصراع الاقليمي يتفاعل بين الجبور ومملكة هرمز وقد واكبه وصول البرتغاليين الى السواحل الخليجية، وساعدوا على تجذير الصراع الاقليمي والقبلي والمحلي لبناء مصالحهم في السيطرة الاجنبية.

اذا كان كل من الاحساء (بشقيه القطيف شمالاً والهفوف جنوباً)، فضلا عن الساحل الاخضر يطلان على الخليج العربي* فان اقليم عمان يطل بامتداده على خليج عمان (= عمان كورفزي). كان اقليم عمان مشتتاً تتوزع السيطرة عليه قوى محلية واقليمية، فسواحل عمان في قبضة ملوك هرمز. اما الدواخل العمانية، فقد كانت بايدي الملوك النبهانيين الذين كانوا في صراع مستمر مع الاباضيين المتحمسين لنصرة الامامة الاباضية.

كان الامام عمر بن محمد الحزوصي قد نجح في انتزاع الحكم من النباهنة خلال القرن الخامس عشر، واعلن بعث الامامة الاباضية، وقد استعان ببني جبر بعد اقالة النباهنة اياه، فنجح بنو جبر في اعادته اماماً على عمان في عام ١٤٨٧م. وقد تفوق نفوذ الجبور في عمان عند القرن السادس عشر**.

دخل البرتغاليون الخليج العربي لأول مرة عام ١٥٠٧م، عندما كانت عمان تحت سيادة ملك الجبور الذي دانت له اصقاع الجزيرة العربية بالولاء، وكان الجبور يشنون هجماتهم على مملكة هرمز التي تكفلت وذلك لموقعها الاستراتيجي في التصدي للبرتغاليين، والتي لم تتعاون مع الدولة الصفوية في فارس، ولم تكن دولة هرمز دولة عربية محددة الهوية، بل تنوع السكان فيها تنوعاً كبيراً.

وعلى الرغم من التهديدات البرتغالية، فانه لم تظهر أية تكتلات عربية في الخليج العربي من اجل التصدي للتحديات البرتغالية، وقد حدث العكس، قد بدأت

---

*وهو خليج البصرة (= بصرة كورفزي) خلال الفترات العثمانية وعلى امتداد القرون المتأخرة.

** التفاصيل في د. عبد اللطيف الحميدان، «التاريخ السياسي لامارة الجبور»، مجلة كلية الاداب – جامعة البصرة السنة ١٤، ص ٣١–١٠٩، السنة ١٥، ص ٢١١– ٢٤٠.

القوى العربية تعاني من التفكك والضعف، مما سهل على البرتغاليين البدء بعملياتهم الطويلة المدى، وانهم وجدوا السبيل في تأليب مملكة هرمز على الجبور ونفوذهم العربي.

٢ / اقليم الاحساء: قوة الخوالد العربية:

كان للبصرة تاثير بالغ على ترتيب الاوضاع السياسية في منطقة الخليج العربي خلال القرن السابع عشر الذي توسع فيه النفوذ الهولندي، واعقبه البلجيكي. ولكن الانكليز استطاعوا من خلال عدائهم للهولنديين، وتحالفهم مع بعض السكان خلال النصف الثاني من القرن المذكور، ان يقهروا النفوذ البرتغالي نهائيا بعد ان كان نفوذ هؤلاء كبيراً عند مطلع القرن المذكور، حتى وصل تأثيرهم الديني الى البصرة التي اسسوا فيها كنيسة برتغالية بعد سنة ١٦٢٢م.

وقد بلغ التنافس التجاري بين الانكليز والبرتغاليين والهولنديين كبيرا خلال عقود القرن السابع عشر في منطقة الخليج العربي، فانعكس ذلك على ابرز الحواضر الخليجية، وبخاصة على الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية للبصرة، والتي كانت على مدى التاريخ الطويل مستقطبة الاستراتيجية البحرية كرأس للخليج العربي وتحكمها في اقتصاديات العالم حتى عام ١٨٦٩م عندما تحولت عنها المسالك التجارية / الدولية مستخدمة قناة السويس منذ ذلك اليوم حتى الآن.

وكان اقليم الاحساء قد غدا سنجقاً عثمانياً تابعاً لامارة البصرة الافراسيابية التي فقدت شخصيتها السياسية بأفول رجالاتها الامراء من الحكام الاقليميين في خضم الاحداث التاريخية التي شهدتها المدينة في القرن السابع عشر، في حين بقيت أسواقها التجارية مزدهرة ومسيطرة على اقتصاديات البحار العربية. فكان ذلك بمثابة الاحتياطي المخفي لابقاء التوازن الاقليمي بين البر والبحر. يقول احد الرحالة البرتغاليين في وصف البصرة عام ١٦٦٣م بانها «اعظم سوق تجارية في هذه البحار»* . بمعنى : حصولها على مكانة كوسموبوليتانية – دولية في اقتصاديات العالم.

---

* Quoted from S.H. Longrigg, Four Centuries of Modern Iraq, Oxford, 1925. P.114.

أما في الاحساء فقد تبلورت فيه قوة الخوالد العربية، والذين استأثروا بالسلطة الفعلية مع الاحتفاظ بعلاقات من التبعية الاسمية للسلطة العثمانية الاقليمية في بغداد طوال النصف الأول من القرن السابع عشر، أي : ان الخوالد بقوا في حكم الاحساء حتى سنة ١٧٩٣م، فقد دام حكمهم أكثر من قرن وربع القرن ، وهي نفس الفترة التاريخية التي تغطي العهد الأول للعثمانيين في حكم الاحساء، الذي امتلك المزيد من الروابط السياسية والاقتصادية والقبلية باقليم البصرة شمالاً واقليم عمان جنوباً *.

٥- عمان : اليعاربة وتأسيس النظام السياسي/ البحري:-

١/ الخصوصية والتقاليد الاستقلالية والتهادن مع العثمانيين:

تقع بلاد عمان في الجزء الجنوبي - الشرقي من الوطن العربي وشبه الجزيرة العربية، وتطل سواحلها على خليج عمان والبحر العربي، وتتصل مياهها الاقليمية بالمحيط الهندي، فهي تمتلك اذا موقعاً استراتيجياً ممتازاً ساعدها كثيرا في التأثير في اقتصاديات العالم القديم. وبلاد عمان تضم الجزء الاكبر من السلسلة الطويلة من الجبال التي يطلق عليها اسم «الحجر» والممتدة من الجبل الاخضر، وتتألف اراضي بلاد عمان من : مسقط ومطرح، والمنطقة الساحلية (البطانة) بين الحجر الغربي البحر. وهناك شبة الجزيرة الشمالي (= رؤوس الجبال) ومنطقة ظفار شرق حضرموت.

وبلاد عمان تمتلك تاريخاً قديماً وعريقاً، كما كان لها نظامها التاريخي العربي القديم، وتقاليدها الاستقلالية المنفصلة معروفة منذ العصور الوسطى، فقد صبغتها الايديولوجية الاباضية بصبغتها الخاصة تاريخياً. اما جغرافياً فقد احتلت عمان موقعاً استراتيجياً استطاع ان يقدم لها خدمات كبيرة سواء في التعامل مع شعوب متنوعة ومتعددة ومع مدن واسواق وسواحل واقاليم كما تحكمت في بوابة الخليج العربي واعماق البحار الشرقية **.

---

* راجع: د. عبد الفتاح ابو علية، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، الرياض، ١٩٨٦.

** راجع توصيفات لوريمر الواضحة في دليل الخليج (القسم الجغرافي)، ترجمة: مكتب حاكم قطر، الدوحة.

لقد حكم بلاد عمان الازديون للفترة ١٤٣٥ - ١٥٦١، واعقبهم اليعاربة للفترة ١٦٢٥- ١٧٤١م، ثم الالبو سعيد للفترة ١٧٤١ - حتى اليوم. احتلها البرتغاليون سنة ١٥٠٨م، وبقوا فيها حتى منتصف القرن السابع عشر، وقد واجههم العمانيون دون تخطيط أو تنسيق مع الدولة العثمانية. وقد استطاعوا ان يحرروا بلادهم بعد نضال قاس طويل. كما تعرضت بلادهم للغزو الفارسي... فاذا كان اليعاربة قد نجحوا في تحرير عمان من السيطرة البرتغالية، فان البو سعيديين استطاعوا ان يحرروا بلادهم من قوات نادرشاه الفارسية.

ويمكننا القول ان عمان لم تصطدم بالعثمانيين وذلك لبعدها الجغرافي عن ساحتهم، وهي علاقة تهادن واحترام بين السلطتين العثمانية والعمانية.

وسنوضح ادناه اوضاع عمان المرتبطة بالنظام التاريخي - العربي خلال عهد اليعاربة وعهد الالبو سعيديين:

٢ / الدولة والمرجعية العقائدية / الاباضية:

ظهرت دولة اليعاربة في عمان من خلال الصراع البحري الفعال بينهم وبين البرتغاليين، اذ بدأت القوى الاقليمية تحسب لليعاربة حساباً كبيراً في داخل البلاد وخارجها منذ العقود الأولى للقرن السابع عشر... في حين سيكون الاحتلال الفارسي لعمان من العوامل الفعالة في نشوء وتكوين اسرة حاكمة سلالية عربية أخرى هي أسرة البوسعيد التي خلفت اليعاربة في حكم عمان وزنجبار.

نجح اليعاربة منذ البداية في تأسيس اسطول عربي - تجاري وحربي الى جانب الاهتمام بالزراعة، وبناء الحصون الحربية والقلاع، فضلاً عن نجاحهم في توحيد البلاد، واعلان الحكم المركزي بعد المعاناة من الانقسام والتشرذم في ظل زعامات قبائلية متعددة.

لقد قام نظام حكم اليعاربة على اساس مرجعيته «الامامة الاباضية»، ويستند النظام على البيعة بالانتخاب دون الوراثة، على الرغم من بقاء الامامة منحصرة في تلك الاسرة حتى سقوطها في عام ١٧٤١م. والاباضية: مذهب ديني اسسه عبدالله بن اباض الذي خرج ثائراً في عهد الدولة الاموية على عبد الملك بن مروان،

ولجأ الى عمان حيث اقام فيها نظاماً امامياً استمر واقعاً تاريخياً يخفت وينبعث بين قرن وآخر، وخلال عهد النباهنة الذي استمر قرابة خمسة قرون كانت الامامة الاباضية تبعث تارة وتخفت أخرى، الا انها كانت قد غدت بمثابة «سلطة» تمثل الرأي العام لشرائح المجتمع العماني كافة مقابل «سلطة» النبهانيين في الدولة العمانية... والى جانب كلتا السلطتين، كانت هناك «سلطة» أخرى تمارس النفوذ والحكم في بعض المقاطعات العمانية... وهي الجبور أو بني هلال المنقسمة الى كتلتين : أولاهما في الاحساء وثانيهما في عمان.

استغل الهلاليون الجبور النزاع الخفي والمعلن بين الاباضيين والنبهانيين لكي يمتدوا في الاراضي العمانية، بيد ان تبلور الصراعات الثنائية بين الاطراف الثلاثة تمخض عن زعامة جديدة في عمان خلال أزمة الفوضى الداخلية متمثلة ببروز ناصر بن مرشد بن مالك ابي العرب في الرستاق، ومبايعته بالامامة عام ١٦٢٤م، كي يبدأ عهد اليعاربة فيها كقاعدة استراتيجية، مستفيدين – ايضا – من الضعف التاريخي الذي حاق بالبرتغاليين في الخليج العربي، اثر تهاوي معاقلهم امام ضربات الفرس الصفويين ومدافع البحارة الانكليز.

حكم اليعاربة عمان ما يقرب من مائة وعشرين سنة، وتميز عهدهم بعامة باستتباب الامن الداخلي والرخاء الاقتصادي وازدهار التعليم، والتطور العسكري في القوة البحرية. وقد قمع اليعاربة معارضيهم من الهناوية (= عرب الجنوب)، والغافرية (= عرب الشمال)، والاسرة الالبو سعيدية التي خلفتهم في حكم عمان، فضلا عن الهلاليين الجبوريين الذين ناصروا الهناويين. ونجح ناصر بن مرشد بتوحيد بلاده واخضاع الجبور في عمان، وحاول اخضاع جبور الاحساء هادفاً الى عملية توحيد أكبر، ولكن الصراع تميز بالعنف والقسوة لا سيما وان جبور الاحساء كانوا قد كسبوا تحالفات قبائلية عديدة.

لقد وصف المؤرخ ابن رزيق ناصر بن مرشد بانه كان حاكماً نزيهاً مستقيما وعادلا *، ولكن المشكلات الداخلية تفاقمت في عمان في أواخر عهد الاسرة

---

* انظر حميد بن محمد بن رزيق، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق عبد المنعم عامر و محمد مرسي عبدالله (وزارة الثقافة والتراث القومي)، سلطنة عمان، ١٩٧٧، ص ٢٩١.

اليعاربية بعد ان استطاعت ان تحقق بنجاح معالجة لمشكلاتها الخارجية ضد الفرس والبرتغاليين، اذ ان الاوضاع الداخلية فادت الى احتلال فارسي لعمان.

٣/ العمليات البحرية والحربية والامتداد نحو شرقي افريقيا:

قام الامام اليعاربي ناصر بن مرشد بعد مبايعته بالامامة الاباضية في عمان سنة ١٦٢٢م بجهود كبيرة في سبيل القضاء على البرتغاليين. وتمكن خلفاؤه من بعده ان يقضوا على النفوذ البرتغالي في الخليج العربي وشرقي افريقيا. وغدت دولة اليعاربة من اكبر الدول البحرية – الزراعية التي ظهرت في تاريخ العرب الحديث. وتزامنت ولادتها مع سقوط هرمز، وبقي اليعاربة ينأون بانفسهم عن النفوذ الفارسي والتبعية البرتغالية... واستمرت دولتهم قوية حتى سقوطها في عام ١٧٤١م، وقد خلفتها في الحكم اسرة البوسعيد التي لم تزل تحكم عمان حتى يومنا هذا.

خاض الامام ناصر بن مرشد مؤسس أسرة اليعاربة صراعاً مريراً ضد الفرس والبرتغاليين، وقد قضى على مملكة هرمز، واستطاع ان يضم رأس الخيمة، ووقف متحدياً الفرس الذين ارادوا ان يرثوا البرتغاليين ومملكة هرمز في سيطرتهم على المواقع العمانية... وحارب البرتغاليين في الخليج بحيث لم يتبق لهم عند وفاته عام ١٦٤٩م غير تحصينات وقلاع مشرفة على مدينتي مسقط ومطرح، وكان الصراع البرتغالي – العماني قد اتخذ له صبغة دينية متحمسة من جانب العمانيين الذين دافعوا عن أرضهم وممتلكاتهم وبحارهم باسم «الاسلام»، وقد بلغ الصراع المذكور اوج قوته في عام ١٦٤٠م.

لقد قاد الامام سلسلة من الهجمات الناجحة على البرتغاليين، وفي الوقت نفسه كان يستكمل عملية التوحيد الداخلي وبناء عمان، وقد اعقبه في الحكم ابن عمه سلطان بن سيف الذي بعث بحملة كبرى لحصار مسقط، وقد اضطر البرتغاليون قبول الهدنة بعد اشتداد الحصار وقسوته، وانتشار الطاعون، ففرض العمانيون شروطهم القاسية، ومنها: هدم القلاع، وابقاء «مطرح» ميناء حرا بين الجانبين، وتدمير العمانيين لكافة التحصينات، وحرية التجارة في البحر أي دون تفتيش للسفن، وعدم جباية الضرائب من العمانيين، وعقد صداقة بين ملك البرتغال وامام عمان، والا يعتدي العمانيون على البرتغاليين أو البرتغاليون على العمانيين.

لم تستقر الاوضاع برغم توقيع الهدنة بين الطرفين، ولكن يبدو ان جلاء الاساطيل والقوى البرتغالية عن السواحل العمانية على يد الامام سلطان بن سيف «كان يعد عملاً رائعاً ونقطة تحول في تاريخ المنطقة» على حد تعبير المؤرخ جمال زكريا[1]....

توفي سلطان بن سيف في عام ١٦٦٨م، وخلفه بلعرب، وعلى الرغم من جهوده في تطوير بلده فان الخلاف استحكم بينه وبين أخيه سيف بن سلطان ادى الى انقسامات خطيرة نتج عنها ويلات حتى اطلق الناس على بلعرب «بلاء العرب» بدلا من ابي العرب، ودارت الدائرة على بلعرب فحوصر في قلعته جبرين على يد قوات اخيه فمات هناك، وبويع سيف بالامامة، مثبتا انه حاكم قوي ومجرب، اشتهر ببحريته الضخمة وسفنه المتعددة.

واشتد الصراع ثانية بين العمانيين والبرتغاليين حتى دمّر معقل البرتغاليين على الساحل الشرقي من الخليج العربي وخليج عمان في عام ١٦٩٥م، وبذلك ضاعت هيبة البرتغال في البحار الشرقية باعتبارها «سيدة للملاحة والتجارة في البحار» منذ حركة الاستكشافات الجغرافية، واستمرت العمليات الهجومية للعمانيين حتى مطلع القرن الثامن عشر، لكي تشمل جميع المراكز البرتغالية في البحار، اذ تعقب العمانيون السفن البرتغالية لكي يضربوها وهي في مراكز بعيدة عن مياه الخليج العربي، وخاصة عند السواحل الهندية.

هكذا، بدأت إمامة عمان تتحول شيئاً فشيئاً الى قوة بحرية عربية كبيرة في بحار الشرق، حتى استطاعت طرد البقايا البرتغالية من القواعد البحرية في شرقي افريقيا حيث سقطت كل من كلوة وزنجبار ومباسا، وكادت تسقط موزنبيق في الايادي العربية.

وقدر لليعاربة ان يرسوا جذور حكم عماني- طويل في شرقي افريقيا، تلك هي الجذور التاريخية التي تعد اسساً ارتكز عليها حكم السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٦-١٨٥٦م). لكي تظهر للوجود أول دولة بحرية عربية/ اسيوية - افريقية في التاريخ الحديث.

---

[1] د. جمال زكريا قاسم، الخليج العربي ... ص ١٢٣.